## إضاءات نقدية (مقالة محكمة) السنة الرابعة عشرة \_العدد الخامس والخمسون \_خريف ١٤٠٣ش/أيلول ٢٠٢٤م

#### صص ۱۳۱ \_ ۱۰۹

## تحليل الخطاب النقدى لرواية "يوتوبيا" لأحمد خالد توفيق في ضوء نظرية تيون فان دايك

جابر امام زاده (الكاتب المسؤول)\* أبو الحسن أمين مقدسي\*\*

#### الملخص

يتناول هذا البحث تحليل روايــة يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق من منظور التحليل النقدي للخطاب، بالاعتماد على الإطار النظري الذي طوره تيون فان دايك، ويسمعي إلى تبيان كيفية استخدام الخطاب لبناء علاقات قوة غير متوازنة وترسيخ الفجوة الطبقية بين سكان يوتوبيا (الطبقة الثرية) والآخرين (الطبقة الحرومة). تعتمد المنهجية المتبعة على تحليل البني الخطابية الكلية والجزئية، ودراسة استراتيجيات تمثيل الذات والآخر، وتحديد الأيديولو جيات المضمرة في السرد. يتركز التحليل على المشاهد الرئيسية في الرواية، مثل الأوصاف المتناقضة للعالمين، وصورة شخصيات الطرفين، ومشهد "الصيد" كتجسيد للعنف الموجه ضد الآخر. وقد كشف تطبيق نموذج المربع الأيديولوجي لفان دايك في تحليل النص عن استخدام الكاتب لاستراتيجيات أيديولوجية، وتمثيله للامساواة الاجتماعية في البنية السردية. والجدير بالذكر في يوتوبيا أن كلا الطرفين (سكان يوتوبيا والآخرون) يشاركون في بناء هذا المربع الأيديولوجي، حيث يسعى كل منهما إلى تقديم صورة إيجابية عن ذاته وتشــويه صورة الآخر؛ وهو ما يعكس تبادلاً للصور النمطية وترسيخاً مزدوجاً للشقاق الطبقي. يخلص البحث إلى أن اللغة في يوتوبيا ليست محايدة، بل تُستخدم كأداة للهيمنة الرمزية، إذ تساهم في نزع الإنسانية عن "الآخر" وإضفاء الشرعية على ممارسات العنف في عالمها الديستوبي. ويكشف الكاتب من خلال الخطاب بين الطبقات عن بني العنف الر مزى في المجتمعات المعاصرة، ويجعل من اللغة مرآة تعكس الظلم الطبقي والسياسي.

الكلمات الدليلية: يوتوبيا، أحمد خالد توفيق، التحليل النقدى للخطاب، تيون فان دايك، السلطة، الأيديولوجيا.

<sup>\*.</sup> حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، طهران، إيران dber.emamzadeh@ut.ac.ir

<sup>\*\*.</sup> أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، طهران، إيران

#### المقدمة

تعد رواية يوتوبيا للكاتب المصرى الراحل أحمد خالد توفيق (٢٠١٨-١٩٦٢م)، علامة بارزة فى أدب الديستوبيا العربى المعاصر، وقد حظيت باهتمام نقدى وجماهيرى واسع نظرا لتصويرها الجرىء والمقلق لمستقبل ممكن. تقدم الرواية صورة قاتمة لمجتمع منقسم إلى طبقتين منفصلتين تماما: يوتوبيا، المدينة الفاحشة الثراء والمعزولة خلف أسوار وحراسات مشددة، والتى يعيش سكانها حياة مترفة وفارغة تصل إلى حد الملل القاتل والبحث عن أى شكل من أشكال الإثارة حتى لو كانت وحشية؛ وفي المقابل، "العالم الخارجي" أو "الأغيار"، حيث يعيش المهمشون في فقر مدقع وظروف لا إنسانية، عمرومين من أبسط مقومات الحياة. تستكشف الرواية بعمق إشكاليات محورية تتمثل في التفاوت الطبقي الصارخ، والعزلة الاجتماعية والنفسية، والآثار المدمرة لتجريد في الإنسان من إنسانيته، سواء كان ذلك تجريدا للآخر المضطهد أو تآكلا لإنسانية الفئة المهيمنة ذاتها.

في ظل هذا العالم المتشظى، يبرز دور اللغة والخطاب كأداة فعالة في تشكيل التصورات وترسيخ الهيمنة. ومن هنا، ينطلق التساؤل الرئيسي لهذا البحث: كيف يسهم الخطاب في رواية يوتوبيا في بناء علاقات القوة غير المتكافئة والأيديولوجيات المهيمنة، وفي تعزيزها وإضفاء الشرعية عليها؟

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة على هذا التساؤل المحورى من خلال تطبيق أدوات التحليل النقدى للخطاب، وبالأخص الإطار النظرى الذى قدمه تيون فان دايك. يهدف هذا البحث إلى كشف الآليات اللغوية والسردية التى من خلالها يتم تشكيل الواقع الاجتماعي، وتبرير الهيمنة، وتطبيع الظلم في عالم الرواية. سنركز على كيفية توظيف استراتيجيات تمثيل "الذات" الإيجابية (سكان يوتوبيا) و"الآخر" السلبية (الأغيار)، وتحليل البنى الأيديولوجية العميقة التى تغذى هذا الاستقطاب الحاد وتحافظ على استمراريته، مما يجعل من الخطاب أداة رئيسية للسيطرة الاجتماعية وإنتاج اللامساواة في هذا العالم الديستوبي.

#### الدراسات السابقة

تعد نظريات تيون فان دايك، وخاصة نموذجه للمربع الأيديولوجي وتحليله لكيفية بناء "الذات" و"الآخر" في الخطاب، من الأدوات المنهجية الأساسية في التحليل النقدى للخطاب. وقد طبقت هذه النظريات على نطاق واسع في تحليل أنواع مختلفة من الخطابات، بما في ذلك الخطاب السياسي، والإعلامي، والاجتماعي، لكشف علاقات القوة الكامنة وآليات الهيمنة الأيديولوجية. على سبيل المثال، استخدمت دراسات عديدة مثل دراسة فان دايك نفسه حول الخطاب العنصري في الصحافة "Discourse" عديدة مثل دراسة فان دايك نفسه حول الخطاب العنصري في الصحافة "and Racism in Spain and Latin America اللغة في إنتاج التمييز وإعادة إنتاجه، وتبرير اللامساواة الاجتماعية. كما تم تطبيق منهجه على نصوص أدبية لكشف الأبعاد الأيديولوجية المضمنة فيها.

أما رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق فقد حظيت باهتمام من قبل الباحثين، وإن كانت الدراسات التى تناولتها بالتحليل الخطابى النقدى، وتحديدا من منظور تيون فان دايك، لا تزال محدودة. من بين الدراسات التى تناولت الرواية من زاوية مختلفة، نجد مقالا بعنوان «أدب الخيال العلمى الاجتماعى فى رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق» (٢٠٢٣م) للباحثين فرهنگ مفاخرى وعبد الله حسينى، والتى نشرت فى مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها. يقدم البحث تحليلا استشرافيا لرواية يوتوبيا بناء على المنهج الوصفى التحليلي وبالاعتماد على آراء المتخصصين فى مجال أدب الخيال العلمى الاجتماعى، حيث تظهر سمات هذا الفرع الأدبى بوضوح فى الرواية وخلصت الدراسة إلى أن الكاتب قد خلق ثنائية من المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) والمدينة الفاسدة (الديستوبيا) وعمل على تطويرها عبر الرواية ليكشف من خلالها عن الجروح الاحتماعية.

و تناولت دراسة محمود محمد السعيد أبو زهرة (٢٠٢٠م) بعنوان «ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق» تحليل الرواية من منظور الديستوبيا، مركزة على الخراب النفسى والمادى في المجتمع المصرى كما يصوره الكاتب. وقد استعرضت الدراسة مستويات الديستوبيا في الرواية، مثل الخراب النفسى والتحول في

العلاقات الأسرية، والخراب المادي مثل الفقر وانتشار المخدرات والقتل.

كما تناولت دراسة منتصر نبيه محمد صديق (٢٠٢١م) بعنوان «رؤية الواقع وأثرها على بناء الشخصية في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق» تأثير رؤية الكاتب للواقع على تشكيل الشخصيات الروائية، محللة الثنائيات الضدية المرتبطة بالشخصية داخل الرواية. وقد استعرضت الدراسة الأساليب التي اعتمدها الكاتب في بناء شخصياته، مثل الوصف الاجتماعي والنفسي والمادي.

وفى دراسة ناهد عصام محمد (٢٠٢٣م) بعنوان «الإطار الزماني\المكاني في رواية يوتوبيا» تم تحليل الإطار الزماني والمكاني للرواية باستخدام مفاهيم ميخائيل باختين ويورى لوتمان، مظهرة كيف يسهم الفضاء الزمني والمكاني في تشكيل المعنى الاجتماعي والسياسي للرواية.

على الرغم من الدراسات المتعددة التى تناولت رواية يوتوبيا من زوايا مختلفة، إلا أن تطبيق نظرية تيون فان دايك فى تحليل الخطاب النقدى لهذه الرواية يعد أمرا جديدا ومهما. فمن خلال استخدام "المربع الأيديولوجي" لفان دايك، يمكن الكشف عن كيفية تمثيل الخطاب الروائي للسلطة والهيمنة، وكيفية تشكيل الهوية الجماعية والفردية فى سياق اجتماعى متدهور. هذا التحليل يسهم فى فهم أعمق للبنية الأيديولوجية للرواية ويقدم إضافة نوعية فى مجال الدراسات الأدبية والنقدية.

#### الإطار النظرى

#### المبادئ العامة للتحليل النقدى للخطاب (CDA)

التركيز على القضايا الاجتماعية: التحليل النقدى للخطاب لا ينطلق من اللغة لذاتها، بل من المشكلات الاجتماعية الملموسة كالظلم واللامساواة. يرى أن الحياة الاجتماعية شبكة من الممارسات المترابطة (كالتعليم أو الإعلام)، والخطاب جزء أساسى منها. يظهر الخطاب كجزء من النشاط الاجتماعي، وفي تمثيل الفاعلين للممارسات، وفي تشكيل المويات (كهوية القائد السياسي). (بن غالي، ٢٠٢٤م: ٢٤٥)

العلاقة بالسلطة: يهتم التحليل بكيفية ممارسة السلطة، خاصة إساءة استخدامها،

وآليات الهيمنة التي تفرضها جماعة على أخرى. مهمته الأساسية هي كشف كيف يساء استخدام السلطة أو تعاد إنتاجها وتشرعن عبر الخطاب من قبل الجماعات المهيمنة. تعرف السلطة الاجتماعية بأنها سيطرة فئة على أفعال أو عقول فئة أخرى، مما يحد من حريتها أو يؤثر في معارفها. أما الهيمنة فهي ممارسة غير شرعية لهذه السلطة لمصالح خاصة، وغالبا ما تؤدي للامساواة الاجتماعية. (الزناتي، ٢٠٢٤م: ٣٦)

اللامساواة: تعد اللامساواة محورا رئيسيا، حيث يسعى التحليل النقدى للخطاب لفهم كيفية بنائها وإعادة إنتاجها خطابيا. نظرا لأن خطابات كثيرة تمارس التمييز والهيمنة ضد فئات معينة، رأى الدارسون أن تغيير الخطاب قد يساهم في تغيير المجتمع. ولذلك، يهدف التحليل إلى إنتاج خطابات تضعف من هذه اللامساواة أو على الأقل تخلو منها، مما دفع للاهتمام بما يسمى "بلاغة الجمهور". (سامح، ٢٠١٧م: ١١٥)

الهدف الكشفى: الهدف من التحليل النقدى للخطاب ليس مجرد الوصف، بل هو "كشف" علاقات القوة غير المتكافئة وآليات السلطة والهيمنة المخفية أو المبررة فى الخطاب. إن كشف آليات اشتغال العنف الرمزى، المتجذر فى علاقات القوة، يكشف أوهام المجتمع وممارساته التى تبدو طبيعية. ومع ذلك، يرى البعض أن هذا التركيز على آليات الهيمنة والتعسف، كما فى أعمال بورديو، قد يوحى مجتمية الوضع ويغلق الباب أمام إمكانيات التغيير. (العلى، ٢٠٢٢م: ١٠٣)

الأداة: تحليل اللغة والخطاب: الوسيلة لتحقيق هذا الهدف الكشفى هى التحليل الدقيق "للغة والخطاب". يدرس التحليل النقدى كيف أن استعمال اللغة يعيد إنتاج رؤى وقيم وطرق أصحاب القوة والنفوذ، والتي قد لا ينتبه إليها الأقل نفوذا. يركز على العلاقة بين اللغة، والقوة/النفوذ، والأيديولوجيا (وهي تمثيل لجوانب من الحياة تسهم في تأسيس علاقات السيطرة واللامساواة). ويسعى التحليل، باستخدام أدوات لغوية، إلى إلقاء الضوء على كيف يسهم استعمال اللغة في السيطرة على جماعات اجتماعية معينة وفي سوء تمثيلها، ولا يقتصر ذلك على الممارسات السياسية بل يمتد للممارسات التعليمية وغيرها. (الشويرخ، ٢٠٢٣م: ٤٤٠)

#### مثلث فان دایک: الخطاب-الإدراک-المجتمع

يقدم فان دايك نموذجا يوضح العلاقات المتداخلة بين الأيديولوجيا، والمجتمع، والإدراك (العمليات المعرفية كالذاكرة)، والخطاب. فالتفاعل الاجتماعي ضمن الهياكل المجتمعية يتجلى كخطاب يدرك عبر هذا النظام المعرفي. ولهذا، يهتم التحليل الثقافي للخطاب بـ"العقد الخطابية"، وهي النصوص المركزية الحاكمة والمؤثرة، بغض النظر عن عدد النصوص المحللة. (محمد، ٢٠٢٣م: ١١٢)

يعتبر فان دايك، وفقا لهذا الطرح، الباحث الذي سعى لدمج النظريات الإدراكية باللغويات والنظريات الاجتماعية. تقترح نظريته، المعروفة بـ"النظرية الاجتماعية/ الإدراكية لدراسات الخطاب النقدي"، نموذجا ثلاثي المستويات يربط بين الخطاب والإدراك والمجتمع. يوظف في هذا النموذج "الأطر الإدراكية" كطبقة وسطى تتوسط بين البني اللغوية للخطاب (كالاختيارات الدلالية والاستراتيجيات البلاغية) في المستوى الأدنى، والبني المجتمعية (كالعرق والجنس) في المستوى الأعلى، مع العلم أن هذه المستويات هي مجازات تحليلية في نظره. وبالتالي، فإن التحليل النقدي للخطاب هو تحليل إدراكي واجتماعي وسياسي في آن واحد، ويعد هذا الترابط بين الخطاب والتفاعل من جهة، والبني الاجتماعية من جهة أخرى، إحدى أبرز خصائصه. وقد ركزت نسبة كبيرة من أبحاث فان دايك على قضايا التنميط (أي إعادة إنتاج التحيز العرقي)، وإساءة استخدام السلطة من قبل النخب، والمقاومة التي تبديها المجموعات المهيمن عليها. (الشويرخ، ٢٠٢٣م: ٤٤٥)

يرى فان دايك أن الخطاب هو حدث تواصلى يظهر تنوعات المعنى، ويشدد على أهبية لسانيات النص واللسانيات الإدراكية ضمن ما يسميه "المذهب الاجتماعى الإدراكي". يستكشف هذا المذهب العلاقة بين الظواهر الإدراكية وبنى الخطاب والبنى الاجتماعية، ليشكل بذلك نموذجه الثلاثي الشهير: الخطاب الإدراك المجتمع. ومن القضايا الأساسية لديه أن العلاقة بين الخطاب وسياقه جوهرية في التحليل النقدى للخطاب. يفضل فان دايك استخدام مصطلح "دراسات الخطاب النقدى" (CDS) بدلا مصن تحليل الخطاب النقدى (CDS)، حيث يرى أن (CDS) تجمع بين طرق وأفكار

متعددة من علم النفس، واللسانيات النقدية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فهى ليست مجرد طريقة تحليلية واحدة. ومن المهم الإشارة إلى أن هذا المذهب لا يقتصر على الجوانب الاجتماعية والإدراكية فحسب، بل يسعى أيضا لتقصى التمثيل الذهنى لمستخدمي الخطاب، وعمليات إنتاج الخطاب واستيعابه، بالإضافة إلى الأيديولوجيات السائدة في المجتمع. لاحقا، ركز فان دايك بشكل متزايد على كيفية إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية وإساءة استخدام السلطة والنفوذ، وبصفة خاصة على إعادة إنتاج "العرقية" من قبل من أسماهم "النخب الرمزية" (كالسياسيين والإعلاميين والعلماء والكتاب)، وذلك في وسائل الإعلام المطبوعة، ساعيا بذلك إلى ردم الفجوة بين المجتمع والخطاب. (الشويرخ، ٢٠٢٥م: ٢١٨)

## مفاهيم فان دايك الأساسية

السلطة (Power): يعرف فان دايك السلطة بأنها ليست مجرد أداة للقمع، بل هي سيطرة على أفعال وعقول جماعة أخرى، ويتم ذلك بشكل خاص عبر التحكم في الخطاب العام. يوضح أن الأيديولوجيات غالبا ما تشكل لإضفاء الشرعية على سيطرة طبقة حاكمة أو نخب. فإذا كانت السلطة تعنى قدرة مجموعة على التحكم في أفعال مجموعة أخرى، فإن وظيفة الأيديولوجيات في هنذا التحكم هي تمثيل جانبه الذهني؛ أي أنها توفر المبادئ التي تبرر ممارسات المجموعة المسيطرة (كالتمييز)، وتسوغ استغلال السلطة، وتضفى عليه الشرعية، وتسهل قبوله من المجموعة المسيطر عليها. بعبارة أخرى، الأيديولوجيات هي وسيلة وغاية لمارسات المجموعة، وهدفها إعادة إنتاج المجموعة وسلطتها (أو تحدى سلطة مجموعات أخرى). ويستخدم مصطلح إعادة إنتاج المجموعة الشرعية عليها. (فان دايك، ٢٠٢٣م: ٣٧)

الأيديولوجيا (Ideology): هي الأنظمة الأساسية للمعتقدات الاجتماعية التي تنظم كيفية فهم الجماعات للعالم الاجتماعي (الإدراك الاجتماعي)، وتستخدم لتبرير الأفعال والعلاقات الاجتماعية، وخاصة العلاقات غيير المتكافئة. يرى فان دايك أن إحدى

الوظائف الأساسية للأيديولوجيا هي ضمان شرعية السلطة وتحقيق الهيمنة لأفكارها الحاكمة عبر إقناع المتلقين بها. لذلك، يهتم الباحث في التحليل النقدي للخطاب بكيفية تأثير هذه الأيديولوجيا أو دعم توجهاتها من خلال دراسة نصوص الخطاب، بهدف فهم علاقات السلطة بين الأطراف (المرسل والمستقبل)، وكذلك فهم الأهداف السياسية التي يسعى المخاطب لتحقيقها عبر استخدام الخطاب. (الساوي، ٢٠١٣م: ٢٣٩) إلى الاستراتيجيات الخطابية المستخدمة لتقديم صورة إيجابية عن "نحن" (الجماعة الداخلية/In-group) وصورة سلبية عن "هم" (الجماعة الخارجية/Out-group). هناك استراتيجيات دلالية (معنوية) قليلة تسود في النقاشات حول الآخرين، إلى جانب التعبير عن تصورات مستقطبة وتقسيم الناس إلى "نحن" و "هم". هذا يوحي بأن التصورات الاجتماعية الكامنة عن الجماعات (مثل المواقف والأيديولوجيات) هي التي تتحكم في الحديث والنصوص المتعلقة بالمهاجرين أو اللاجئين، وليس بالضرورة غاذج لأحداث فردية (إلا إذا استخدمت كأمثلة توضيحية). يمكن أن ينطبق هذا الاستقطاب أيضا على تصنيفات فرعية للجماعات الخارجية، مثل تقسيمهم إلى "جيدين" و"سيئين" أو "أصدقاء" و"أعداء". يتاز الحديث داخل الجماعة الواحدة، سواء كان مصحوب بانتقاص للجماعات الخارجية أم لا، باستراتيجية عامة أخرى، وهي "تفضيل الجماعة الداخلية" أو "التقديم الإيجابي للذات". يتخذ ذلك شكلا فرديا أو جماعيا، حيث يؤكد المتكلم على الخصائص الإيجابية لمجموعته (كحزبه أو بلده). يتجلى هذا التقديم الإيجابي للذات في سياق النقاشات حول الهجرة، على سبيل المثال، من خلال تأكيد التسامح، أو الضيافة، أو عدم التحيز، أو التعاطف، أو دعم حقوق الإنسان. ويعد التقديم الإيجابي للذات ذا طبيعة أيديولوجية في الأساس، لأنه مبنى على الصورة الذاتية الإيجابية التي تحدد أيديولوجيا المجموعة. (فان دايك، ٢٠٢٣م: ١١٢)

## المربع الأيديولوجى

يعتبر المربع الأيديولوجي (Ideological Square) الذي قدمه تيون فان دايك أحد

النماذج التحليلية المؤثرة والمستخدمة على نطاق واسع في التحليل النقدى للخطاب. يركز هذا النموذج بشكل خاص على تحليل كيفية التمثيل الأيديولوجي لمجموعة "نحن" المجموعة الداخلية مقابل مجموعة "هم" المجموعة الخارجية في الخطاب. يقوم النموذج على استراتيجية كلية تعرف بـ "الاستقطاب" (Polarization) والتي تتضمن أربع حركات أساسية:

#### بنى الخطاب

البنى الكبرى (Macrostructures): وهى الموضوعات والمواضيع العامة. يرى فان دايك أن «الأبنية الكبرى للنصوص دلالية؛ فهى تصور الترابط ومعنى النص الذى يستقر على مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية، وبذلك يمكن أن يشكل تتابعا كليا أو جزئيا لعدد من القضايا ذات وحدة دلالية على مستوى أكثر عمومية» ويقصد بها فان دايك المعنى الإجمالي للنص / الخطاب؛ يقول: «المفهوم النظرى الذى سنستعمله لوصف هذا المعنى الإجمالي، أى موضوع أو تيمة النص، ما هو إلا مفهوم البنية الكبرى "الدلالية"، كما هو الشأن بالنسبة لأى بنية دلالية، فإن البنية الكبرى تتركب أيضا من قضايا تهتم بنفس الوقائع في مستوى عال أو أكثر تجريدا أو أكثر عمومية أو أكثر الجمالي، أعرضي، ٢٠٢٥م: ٢٦١)

البنسى الصغرى (Microstructures): يكمن جوهر التأويل في تفكيك الخطاب

إلى قضايا جزئية وترتيبها ترتيبا سلميا، وذلك قصد بناء دلالة القضايا المشكلة له، ومن ثمة تخطى هذا المستوى لإقامة البنية العامة للمحتوى. في هذا الإطار يدرج فان دايك مفهوم البنية الصغرى أوما يسمى ب "أساس النص" ويتحدد في كونه عبارة عن لائحة من القضايا المبنينة التي تمثل المعنى المحلى للنص، حيث تنتظم كل قضية في محمول وعدد من الموضوعات. (العربي، ٢٠١٩م: ٥٩)

## تحليل الخطاب في رواية يوتوبيا باستخدام نظرية فان دايك مثلث فان دايك: الخطاب – المعرفة – المجتمع

تقوم نظرية فان دايك على مثلث ثلاثى الأبعاد يتكون من: الخطاب، والمعرفة، والمجتمع. وفي رواية يوتوبيا، يتجلى هذا المثلث بشكل صارخ من خلال البنية الخطابية التي تعكس تمثيلات السلطة والتمييز الطبقى والاحتقار الاجتماعي بين طبقتين رئيسيتين: اليوتوبيين الذين يمثلون الصفوة الثرية، والأغيار الذين يمثلون الفقراء والمنسيين.

الخطاب: يتجلى الخطاب في بنية النص الروائى التى يقدم فيها السارد رؤيته الذاتية المتعالية على الآخر. يعبر السارد (الذى ينتمى إلى يوتوبيا) بلغة نرجسية وفوقية عن الواقع من منظوره، مما يرسخ خطابا إقصائيا قوامه التمركز حول الذات، وتشيىء الآخر، وتحويله إلى مجرد أداة للمتعة أو العنف أو التجربة العابرة. فمثلا، حين يتحدث عن الأغيار يقول: «ما أقبح منظره!.. كل عالمه تلخص في هذه الشطيرة التى في يدى، ولم يعد يعرف أى شيء عما يدور حوله» (توفيق، ٢٠١٤م؛ ٢٢)، مما يعكس تحقيرا واضحا وتجريدا للآخر من كينونته الإنسانية.

ويتكرر الخطاب النرجسي عند وصفه ليومياته في يوتوبيا، حيث يقول: «أصحو.. أضاجع الخادمة.. أقيء.. أضحك.. أرقص... ألبس.. أدس إصبعي... أرى النيران الخضر..» (ص: ١٩٥٢)، وهو وصف ينزع عن ذاته أي عمق إنساني، ويحول الوجود إلى استعراض حسى عدمي، مقابل تحويل الآخر إلى موضوع للمراقبة أو الصيد أو الازدراء.

المعرفة: يظهر النص أن المعرفة متحيزة وفقا للانتماء الطبقي. اليوتوبيون لا يعرفون

عن الأغيار سـوى ما يرغبون في تصديقه عنهم: أنهـم وحوش، قذرون، بلا عقل ولا أخلاق. يتجلى ذلك في قول السارد: «بشكل ما، يستحق النقراء كل ما هم فيه.. إنهم أقل ذكاء من آبائنا.. إنهم ضعيفو الإرادة خاملو الحركة.» (ص: ١١٩) هذه المعرفة ليست مستندة إلى احتكاك حقيقي، بل إلى خطاب مكرر داخلي يغذي الانفصال. بالمقابل، الأغيار – ممثلين في شخصية جابر – يمتلكون معرفة واقعية بالواقع المتشظى خارج الأسوار. جابر يعلم خبايا الأرض، ويعي حقائق الحياة القاسية، ويستطيع فضح زيـف رفاهية يو توبيا، كما نقرأ في قوله: «لكني بالفعل لا أريد دما.. لا أريد قتلي..هذه هي النقطة التي تحدد كل شيء.. الدليل الوحيد الذي يخبرني أنني ما زلت آدميا ولم أتحول إلى ضبع، أنني في هذا أتفوق عليهما..» (ص: ٧٨)، مما يكشف وعيا أخلاقيا مضادا.

المجتمع: المجتمع في يو توبيا مجتمع منقسم على نحو قطبي متطرف؛ الجدار الفاصل بين الطرفين لا يمثل فقط حدودا فيزيائية، بل هو حاجز أيديولوجي معرفي ثقافي يرسخ عبر خطاب يتكرر داخل الرواية بأشكال متعددة: إعلام، تعليم، دين، سرد شخصي، وأساطير حياة الصفوة. من الأمثلة البارزة على هذا الانقسام حديث السارد عن بوابات يو توبيا والأسلاك المكهربة والدوريات، حيث يقول: «ليس من السهل أن تتسلل لعالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول يو توبيا.. إن الفقراء وأبناء الأكابر يبدون متشابهين عندما تراهم في الظلام من طائرة.. طلقات في الظلام.. جثثا هامدة وحادثا مؤسفا.. .» (ص: ١٩) كذلك، تكشف الرواية عن صورة دينية مشوهة تؤدى دور التبرير الطبقي، كما في وصفه لحج الآباء المتدينين باعتباره وسيلة للتطهر من الدماء التي سفكت لبناء رفاهيتهم: «منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي.. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلك هو خشيتهم من أن يفقدوا كل شيء في لخظة.. أن يضيع التميز.. أن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع..الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء بين طابعي الثراء والورع..الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء بين طابعي الثراء والورع..الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء بين طابعي الثراء والورع..الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء

هكذا، تخلق الرواية مجتمعا لا يكتفى بالتمييز الطبقى بل يعيد إنتاجه عبر أنظمة رمزية تشعر الطبقة العليا بأنها الأصل، وأن الآخر ناتج خلل ينبغى محوه أو تهميشه أو استخدامه كمجرد وسيلة لبلوغ المزيد من اللذة أو التسلية.

# تطبيق المربع الأيديولوجي على الرواية التقديم الإيجابي للذات

يقدم سكان يوتوبيا أنفسهم كصفوة متحضرة، عصرية، تملك التكنولوجيا والمال والجمال. يستخدمون لغة تميزية تضعهم في منزلة أعلى من بقية البشر، ويشعرون أنهم يستحقون كل ما ينعمون به، بل وينظرون للآخرين كعالة على هذا التقدم. يقول السارد: «أعرف أننى أستطيع قهر جابر لو هاجمنا.. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر.» (ص: ١٠٧)

ويتفاخر كذلك بتفاصيل حياته المترفة: «عاشرت كل فتاة راقت لى، وجربت كل أنواع المخدرات.. كنت قد بدأت تجاربى بالماريجوانا.. إكستازى.. وجربت الكلاجربت عقاقير كثيرة جدا.. ولكن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة.. من حقى أن أتعاطى أى شيء بأى كمية وبأى ثمن..» (ص: ٥) كما يتفاخر بأسلوبه الجنسى العدواني كدليل على القوة والهيمنة، فيقول: «من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسى عدوانيا ساديا.. لو كنت تعرف طريقة أخرى يمارس بها المرء حياته، فلسوف يسعدني أن تقولها..» (ص: ٦) هذا التقديم الذاتي الإيجابي يرسخ صورة اليوتوبي كمتحكم في العالم ومصيره، لا تحده قوانين أو أخلاق.

### التقديم السلبي للآخر

يصور الراوى اليوتوباوى الأغيار ككائنات دونية، أشبه بالحيوانات، ويختزلون فى صفات القذارة، التخلف، العنف، والشهوة البدائية، فيقول فى وصفه لصفية(أخت جابر) «ثمة شكىء حيوانى غريب فى تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحسس أناملى فى وجل وفضول عندما كنت فى حديقة حيواننا. هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلا.. وثبت(صفية) للخلف مترا بطريقة زادتنى اقتناعا بنظرية

القرد تلك.. هذه حركات غير بشرية.. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها..» (ص: ٦٤)

وفى مشهد آخر يصف العمال قائلا: «لا أحد يعيش هنا من دون عمل.. عمل قذر.. عمل حرام.. عمل غير قانونى...» (ص: ٨٦) أما النساء، فغالبا ما يتم وصفهن بوصف مهين، كما حدث فى حديث إحدى النساء عن الاغتصاب، حيث يقدم بشكل ساخر وكأنه من طقوس الحياة اليومية فى عالم الأغيار: «يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير مسن المال بدلا من أن تكون عبئا عليك. الصنف شحيح والموجود ردىء.. أنت ترى وجه سمية البشع الذى يذكرك بالأبالسة.. هذه الفتاة ستكون مكسبا لنا.» (ص: ٩٣)

### التخفيف من التقديم السلبي للذات

رغم الفوقية التى تسود الخطاب، تظهر لحظات يعبر فيها السارد عن نوع من الحيرة أو التأمل فى قسوة العالم الذى ينتمى إليه. لكنه لا يذهب إلى حد النقد الجذرى، بل يبرر القسوة بالملل أو غياب المعنى: «ماذا بوسعك أن تفعل فى هذه الجنة الصناعية؟ تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك...» بل ويقول: «ربما كنت ملولا.. هذا ليس ذنبى كذلك» (ص: ٦)، ليجعل من الوضع القائم قدرا أكثر منه اختيارا.

#### التخفيف من التقديم الإيجابي للآخر

تقلل الرواية من قيمة الجوانب الإنسانية لدى الأغيار عبر تقليص مساحة أصواتهم، ما عدا شخصية جابر، الذى يعامل كاستثناء. حتى حينما يظهر ذكاء أو شجاعة، يتم التشكيك ضمنيا فى دوافعه، أو يقدم كحالة نادرة بين الأغيار: «إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن.. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تـذكار... كنت أحكى لهم عن جابر الأحمق.. جابر الساذج الذى لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة..» (ص: المم المعبة عنه أن جابر أنقذهما أكثر من مرة، فإن خطاب الريبة يظل حاضرا: «لم يفعل جابر شيئا طيلة هذا النهار.. لما سألته عما ينوى عمله بنا قال فى غموض: انتظرا حتى الوقت المناسب.. لماذا لم تتخلص منا؟» (ص: ٦٧)

وحتى عند الحديث عن الأحياء العشوائية، فإن الرواية تغلب عليها صور الانحطاط والفوضى، ولا تمنح الشخصيات الأخرى مساحة كافية لتقديم ذاتها: «كنا نمشى وسط الجموع ذاهلين.. هناك قفص خشبى عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر.. أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة.. نتوغل بين مجموعة من العشش الصفيح، أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب.. الأرض مبتلة تغوص فيها قدماك.. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجارى الطافحة.. على أبواب العشش تقف نساء قذرات بشيعات المنظر يضحكن لى في إغراء...» (ص: ٣٠) هذا البناء الخطابي يظهر كيف تنتج الرواية – من خلال السارد اليوتوبي – نسقا أيديولوجيا متكاملا يعيد إنتاج التمييز من خلال ثنائية «نحن الأفضل» مقابل» هم الأسوأ»، مع مساحة محدودة جدا للمراجعة النقدية أو الاعتراف بالآخر كند أو إنسان.

المربع الأيديولوجي المضاد (من منظور "الأغيار" - خاصة جابر)

## التأكيد على الجوانب الإيجابية لـ "نحن" (الأغيار)

يمثل جابر صوت العقل والكرامة والقدرة على التكيف مع ظروف مهينة، وهو ليس مجرد شخصية روائية بل تجسيد لإمكانية النجاة دون امتلاك أى أداة مادية أو دعم مؤسسى. إنه يفكر ويخطط وينقذ ويقدم الحماية للجميع حتى لو كان مواطنا يو توباويا: «لا شكر على يفكر والجب.. أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعا للفوز بتذكار فريد!» (ص: ٥٩) وفي موقف آخر، يظهر جابر شبجاعة نادرة حين يصر على أن يرافق السارد وجير مينال في رحلتهم الحفوفة بالمخاطر، قائلا: «أنتما في أمان الآن.. ودا عا.. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا.. فلن أكون موجو دا المرة القادمة...» (ص: ١١٠) هذا المشهد يظهر أن الأغيار يمتلكون أخلاقا عملية وشجاعة تتجاوز عدالة الفرصة إلى الحكمة في تدبير النجاة.

## التأكيد على الجوانب السلبية لـ "هم" (اليوتوبيين)

يرى جابر أن اليوتوبيين ليســوا فقط منسلخين عن الواقع، بل هم مخلوقات مشوهة أخلاقيا ونفسيا، غير قادرين على الإحساس بغيرهم. في تعليق ساخر على دافع الصيد

عندهم يقول: «ينتشر أمثالكم كالضباع بحثا عن فريسة.. بينما العبيد والجوارى من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم.. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم» (ص: ١٠٧) وهذا يشير إلى أن الصيد عندهم ليس بدافع البقاء، بل بدافع المتعة والتفاخر. كما يسخر من عجزهم رغم ما يملكون فيفضح خواءهم الداخلى وانحرافهم عن الإنسانية: «أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفي.. نظر لي في تحد. يتمنى أن يمزقني لكنه تحت رحمتي بالكامل لهذا يصمت.. لو كان يملك شيئا واحدا محترما فهو الذكاء. قال لي: معنا بعض بالكامل هذا ما تريد؟ قلت في اشمئزاز: لا أريد شيئا من مالك..» (ص: ١٠٧)

## التقليل من أهمية الجوانب السلبية لـ "نحن" (الأغيار)

يعترف جابر بوجود عنف وفوضى في مجتمعه، لكنه يعزو ذلك إلى التاريخ الطويل من القهر والتجويع والانفصال عن النظام وحين يعلق على أخطاء أفراد مجتمعه، يربطها دائما بالحرمان: «لاحظ أن ٧٨ ٪ من مرتكبي الاغتصاب عاطلون.. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجتمع دور قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية.. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار.. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطي، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين.. وبنفسس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجي.» (ص: ٨٣) في هذا المقطع يسعى الخطاب إلى تبرير السلوكيات السلبية أخلاقيا أو تحميل أفراد الجماعة مســؤولية مباشرة عنها. في هذا السياق، يعترف جابر بوجـود عنف وجرائم (٧٨٪ من مرتكبي الاغتصـاب عاطلون)، لكنه لا يعرض ذلك بوصف دليلا على انحراف أخلاقي أصيل في مجتمع، بل كنتاج حتمي للفقر والبطالة والتجويع. بهذه الطريقة، يتم نفي أو تخفيف المسـؤولية الأخلاقية الفردية، وتحويلها إلى نتيجة منطقية لسياسات التهميش الطبقي التي مارستها النخبة اليوتوبية. ويستمر هذا التبرير في الجملة التالية (دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى..) محاولا أن يقول: إن ما يحدث في مجتمع الأغيار من عنف أو انحراف ليس نتيجة خلل داخلي فيهم، بل

انهيار للبنية الكلية للنظام. أما المقارنة بين الوضع المعاصر و «قلاع القرون الوسطى»، حيث كان الحكام يحتفلون بينما الفقراء يموتون بالطاعون، فتقدم لتعزيز الخطاب الدفاعى للأغيار. إنها محاولة لإعادة بناء صورة إيجابية نسبية لـ "نحن"، رغم الاعتراف بالسلوكيات السلبية، وذلك بإسناد تلك السلوكيات إلى السياق لا إلى الفاعل.

## التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لـ "هم" (اليوتوبيين)

يتجلى مبدأ التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لليوتوبيين بوصفه أحد الأضلاع الأربعة في المربع الأيديولوجي لفان دايك، من خلال استخدام خطاب الأغيار لنزع الشرعية الأخلاقية والاجتماعية عن الطرف المهيمن إذ تقدم صورة اليوتوبيين ككائنات قارس الكذب بسهولة ودون ضمير، وهو ما يعكس نزعة إلى تجريدهم من أى بعد أخلاقي أو إنساني: «أنا لا أتق بقسمكم لأنكم.. وتكذبون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف.. لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك...» (ص: ١٠٣) كما يسعى هذا الخطاب إلى تحطيم الصورة الإيجابية التي يرسمها اليوتوبيون عن أنفسهم، عبر نزع الصفة الأخلاقية، وتحقير الأصل الاجتماعي، ورفض أي محاولة لإضفاء بعد إنساني عليهم: «أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل.. هؤلاء لم يأتوا من السماء.. كلهم جاءوا من أسفل أسفل الطبقات» (ص: ٢٨) فيهدف الخطاب إلى تقويض سردية التفوق التي يتبناها اليوتوبيون، وتفكيك وهم الامتياز الوراثي أو الطبقي و نفي الطابع النخبوي أو القدري المفترض في وجودهم، ومحاولة فضح حقيقة طبقية مدفونة خلف الروة والسلطة.

فهذه النماذج، توازن بين النقد والتفسير، بين الإدانة والتحليل، ليعطى للأغيار بعدا إنسانيا حقيقيا يتجاوز ما يحاول الراوى اليوتوباوى نفيه أو تجاهله.

## تحليل بنى الخطاب البنى الكبرى

حبكة الرواية ترتكز على رحلة تحول تقود السارد من الاستهلاك العبثي، حيث لا قيمة لأى شيء إلا المتعة والتجربة، إلى المواجهة المباشرة مع الواقع الذي لطالما

تم تجاهله. يتحول السارد من متفرج ساخر إلى قاتل، ومن مستخدم للأغيار إلى مطارد ومهدد، وصولا إلى لحظة القتل التي تنهى الرواية، حيث يتجسد أقصى درجات الانحطاط الإنساني.

والبناء السردى ينقسم بوضوح بين رواية من داخل يو توبيا بصوت السارد الرئيسى، الذى يمثل نخبة منفصلة عن العالم، ومن خارجها من خلال جابر، الذى يقدم رؤية واقعية ومعرفية للأرض، وبالتالى يمنح القارئ منظورا مضادا للخطاب الرسمى. على هذا النحو، فيان بنية الرواية تعكس الثنائية البنيوية التى تؤسسس لها: الداخل والخارج، النخبة والهامش، الجدار وما وراءه.

تعد رواية يوتوبيا تمثيلا نموذجيا لصراع طبقي مركزي يشكل الهيكل العام للنص، وهو الصراع بين طبقة مترفة تملك السلطة والثروة (اليوتوبيون) وطبقة مسحوقة ومهمشة (الأغيار). تبني معظم الأحداث والسرديات في الرواية حول هذا التوتر الجذري الذي لا يعبر عنه فقط من خلال الحبكة أو الشخصيات، بل من خلال البنية الخطابية العامة التي تقسم العالم إلى قطبين متناقضين عاما، يتسم كل منهما عنظومة قيم ورؤية خاصة للواقع فمنذ الصفحات الأولى، تظهر ملامح هذه البنية عبر جمل تفصل بين "نحن" و"هم"، كما في المثال: «نحن أسرة واحدة.. إلخ... لسنا مثل الأغيار... إلخ» (ص: ٩) هنا يتم تقديم "نحن" (اليو توبيين) بوصفهم جماعة متماسكة، منظمة، ومنفصلة عن "الأغيار"، الذين يحذفون من نطاق هذه الأسرة الإنسانية الواحدة. هذه البنية الافتتاحية تؤسس ثنائية حادة: الداخل (يوتوبيا) مقابل الخارج (العالم المحطم)، وهي ثنائية تتكرس لاحقا كإطار نظري ضمني يوجه كل تمثيل سردي لاحق في الرواية: «إذن فليمت الآخرون.. على الأقل، يكنك أن تراهم وهم يوتون بدلا من أن يروك هم..» (ص: ١٦) يعكس هـذا تصعيدا في البنية الكبرى، حيث لا يكون الفصل بين الطبقتين مجرد عزل رمزى أو اجتماعي، بل يتحول إلى خطاب تطبيعي للقتل والموت. تقدم رؤية اليوتوبيين للعالم الخارجي بوصفها مشهدا للموت الذي لا يثير فيهم سوى نوع من التسلية الباردة، مما يشير إلى تفكك كامل في منظومة القيم المشتركة، وانفصال حاد عن مبادئ التعاطف أو المســؤولية الإنســانية. هذا التعليق يعكس جوهر الرواية كعالم ديستوبي يقوم على

اللامساواة الممأسسة: «لكل واحد منا فأره الذي يعتبره أثمن شيء في العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير، لكنه بالنسبة لك أهم شيء في الوجود» (ص: ١١٤) في هذا السياق، يتعمق البعد الرمزي للصراع الطبقي؛ الفأر هنا ليس مجرد كائن، بل استعارة للذات أو القيم الذاتية التي تفهم فقط ضمن سياق اجتماعي خاص. فالأشياء التي تعد ثمينة أو ذات معنى لدى أحد الطرفين، تختزل وتحقر لدى الطرف الآخر، ما يشير إلى انعدام التواصل الرمزي بين الطبقتين. إنه تأكيد ضمني على أن كل طبقة تعيش في منظومة دلالية خاصة بها، حيث لا يوجد مجال لفهم مشترك أو تقييم موحد للمعنى والقيمة.

#### البنى الصغرى

اللغة: يستخدم خطاب يوتوبيا لغة استعلائية ومتشظية، تعكس حالة الاغتراب الطبقى والثقافى التى يعيشها السارد ومن يمثلهم من الصفوة. تكثر فى خطابهم المصطلحات الأجنبية والمفاهيم الاستهلاكية المستوردة، مثل: "الفودو" و"الليبيدافرو" و"الفلوجستين"، التى تستخدم بلا سياق حقيقى، بل كرموز لما بعد الحداثة أو لهاث خلف لذائذ سطحية لا ترتبط بجوهر الإنسان أو بيئته. هذه اللغة تكرس الإحساس بالفوقية من خلال الاستعراض الجسدى والرمزى، كما نرى فى قول الراوى: «أتأكد من أن شعرى حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودو.. لست عابد شيطان، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدرى..» (ص: ٣)

وفى موضع آخر يقول: «كنت أعرف اسم الدواء الجديد لأن أبى يستورده.. (ليبيدافرو).. لهذا لا يتوب رجال يوتوبيا أبدا.. لا يشيخون ولا يهرمون... يملكون السطوة والنفوذ والمال، ولا يملكون الفتوة الطبيعية التى لا تصنعها العقاقير» (ص: ٢٥) أما عن الفلوجستين، فهو أكثر تعبيرا عن انغماس اليوتوبيين في عالم اصطناعي من المخدرات واللذة، إذ يقول:

«هو سيد المخدرات.. هناك في يوتوبيا تسييل أنهار الفلوجستين... إنهم يأكلونه

ویشربونه... انهم یعرقونه... صنابیر الماء لا ینزل منها ماء، بل فلوجستین... یغسلون اقدامهم فی الفلوجستین... یسقون کلابهم فلوجستین..» (ص: ۳۸)

كل هذه العبارات تعكس تراكب المصطلحات الغريبة مع الأفعال الحسية المفرغة من المعنى، بما يكشف عن اغتراب كامل عن الواقع وتعلق بهويات استهلاكية سطحية. تعكس هذه اللغة رغبة مستمرة في تزييف الواقع بلغة اصطناعية، تستخدم لإضفاء شرعية على تفوق زائف وتصبح اللغة هنا أداة لتكريس الفصل بين عالم يوتوبيا النظيف المصنوع، وعالم الأغيار الحقيقي الغارق في الألم.

بالمقابل، يتسم خطاب الأغيار، لا سيما في صوت جابر، بلغة ترابية واقعية، تتكئ على ألفاظ الحياة اليومية وتجارب البقاء والخوف. فحين يصف جابر حيه، يقول: «وسط برك الماء الآسن، وبقع الكيروسين، وسط جثث الكلاب، وصبية يلعبون القمار...» (ص: ١٠٤) ويظهر الطابع الأخلاقي المقاوم في خطابه كذلك، كما في قوله وسمط مجموعة من اللصوص: «اسمعوا.. هذه الفتاة جائعة.. أكثر جوعا منا.. كلكم سرق يوما بسبب الجوع.. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها..». (ص: ٧٧) وفي موضع آخر، يتحدث عن دوافعه الإنسانية في حماية أخته صفية: «أنا حي.. لن أموت وأترك (صفية) تسرق.. لن أموت وأتركها للنساء يخمشن وجهها ويطلقن عليها نعوتا قذرة.. لن أموت وأتركها تجوع..» (ص: ٤٨) حتى اللغة التي تسمخدم في وصف العنف عند الأغيار تأتي بصيغة دفاعية أخلاقية، كما في هذا المقطع: «قالت لي إنه مفترس.. إنه يغار عليها.. إنه يحمل مطواة قرن غزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتي» (ص: ٤٣)

وهنا تتجلى اللغة كأداة مقاومة: تقر بالوضع القاسى لكنها لا تفقد اعترافها بالإنسانية. وبهذا التقابل، يظهر الفارق بين خطاب يوتوبيا وخطاب الأغيار: الأول مفرط في الاصطناعية، مهووس بالمتعة، مشبع بالغربة عن الحيط؛ والثاني مشبع بحس واقعى مؤلم، لكنه أكثر صدقا ووضوحا، وأكثر ارتباطا بالحقيقة المادية للحياة.

المعجم: في رواية يوتوبيا، تلعب الحقول الدلالية دورا حاسما في كشف البنى الأيديولوجية العميقة التي تحكم عالم الرواية وتوجه العلاقات بين الطبقات. فالمفردات المستخدمة في خطاب سكان يوتوبيا تعكس عالما مغلقا على ذاته، يقوم على التفوق،

الامتـــلاک، والإقصاء العنيف للآخر. تتكرر كلمات مثل "الأغيار"، "الصيد"، "التذكار"، "الخــراب"، و"المول"، وهي جميعا مصطلحات تنتمـــي إلى حقل دلالي يربط بين العنف والترف والمتعة النخبوية. فعلى ســبيل المثال، مصطلح "الصيد" لا يســتخدم هنا بمعناه الطبيعي (صيد الحيوانات) بل للإشارة إلى ممارسة وحشية يمارسها شباب يوتوبيا الذين يتســللون إلى مناطق الأغيار لقتلهم، في عملية ينظر إليها كلعبة ترفيهية أو إثارة، أشبه برحلات سفاري بشرية. أما كلمة "تذكار"، فتتخذ دلالة مرعبة ومجردة من الإنسانية؛ إذ لا تشير إلى ذكري عاطفية أو رمزية، بل إلى أعضاء بشرية (كالعظام أو الأصابع) تنتزع من أجســاد الضحايا وتحتفظ بها بوصفها غنائم. هذه المفردات تعكس انحدارا أخلاقيا يصل إلى حد التشــييء الكامل للآخر، وتجعل من العنف وسيلة للمتعة لا مجرد ضرورة أو اضطرار. كذلك، فإن تكرار كلمة "المول" في وصف الحياة داخل يوتوبيا يشير إلى هيمنة نمط اســـتهلاكي فارغ، حيث تختزل الحياة في التسوق والمتعة الجسدية، بعيدا عن أي التزام أخلاقي أو اجتماعي.

في المقابل، يحمل خطاب جابر، ممثل الأغيار، حقولا دلالية مختلفة تماما تعكس أولويات البقاء والكرامة الإنسانية. تتكرر في حديثه كلمات مثل "العيش"، "الستر"، و"الشرف"، وهي مفردات تنتمي إلى عالم يسعى إلى الحد الأدنى من الأمان المادى والمعنوى. فـ"العيش" لا يعنى الترف، بل الخبز الضروري للبقاء، و"الستر" يفهم بوصفه عماية للذات والبيت من الانكشاف أمام قسوة الحياة، أما "الشرف" فهو القيمة الوحيدة المتبقية في عالم متهالك، يتمسك بها كخط دفاع أخير ضد الانهيار الأخلاقي والاجتماعي.

 الضمائر: تشكل الضمائر، ولا سيما ثنائية "نحن/أنتم"، عنصرا بنيويا محوريا في الخطاب السردى لرواية يوتوبيا، وتستخدم لتكريس الانقسام الرمزى والوجدانى بين الطبقت بن المتصارعتين. هذه الثنائية لا تعكس فقط اختلافا لغويا، بل تترجم رؤيتين متناقضتين للعالم، تسهم كل منهما في تثبيت موقع المتكلم داخل منظومة الصراع الطبقى؛ في السرد اليوتوبي، يوظف ضمير "نحن" بأسلوب فردانى نرجسي، يشير إلى جماعة مترفة تعلى من شأن ذاتها وتقصى الآخر بوصفه أدنى. يتجلى هذا في قول السارد: «عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص، كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية.. أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرا؛ لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. ما ذنبنا نحن؟ أنتم أقل منا في كل شيء.. هذه سنة الحياة...» (ص: ١٠١) هنا يتحسول "نحن" إلى ضمير للتميز والتفوق الطبقى، ويستخدم لتبرير الوضع القائم عبر خطاب يدعى المنطق والطبيعية (هذه سنة الحياة)، مع تحميل الطرف الآخر (الأغيار) مسؤولية انحدارهم. لا يظهر "أنتم" كوصم خارجي فقط، بل كدعامة أيديولوجية تبنى حدودا صلبة بين الطبقتين وتضفى شرعية على الامتياز الطبقى.

فى المقابل، يوظف "نحن" فى خطاب جابر بدلالة مختلفة تماما، تشير إلى الانتماء الجماعى والمعاناة المشتركة. يقول جابر: «نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوا.. بينما هوينا نحن إلى الحضيض.. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرا..» (ص: ٦٣) فى هذا السياق، لا تعبر "نحن" عن امتياز بل عن تهميش؛ الضمير هنا يستحضر لتوحيد صوت الأغيار، ورسم صورة جماعية لمعاناتهم اليومية وفشلهم فى النهوض الاقتصادى والسياسى. كما يعكس توظيف "نحن" إدراكا جماعيا للمأزق التاريخي والاجتماعي، خلافا لاستخدامه فى الخطاب اليوتوبي كأداة فصل و تفوق.

بهذا المعنى، لا تعد الضمائر في الرواية مجرد أدوات لغوية، بل مكونات أيديولوجية تعيد إنتاج التراتب الطبقى وتعزز منطق الانقسام؛ إذ تظهر كيف أن اللغة تستخدم لترسيخ مواقع القوة والضعف، الانتماء والإقصاء، والتبرير والإدانة، في عالم روائي يقوم على التفاوت الجذري والتنافر الرمزي.

#### النتيجة

رواية يوتوبيا ليست مجرد عمل خيالى مستقبلى، بل هى نص أيديولوجى مكثف، يشتبك مع أسئلة أخلاقية وسياسية واجتماعية معقدة، ويتحول إلى مرآة مكبرة لانقسام المجتمع المعاصر. إنها لا تقدم فقط تحذيرا مما يمكن أن يكون عليه المستقبل، بل تكشف عن واقع كامن فى الحاضر، يزداد فيه الانفصال بين الطبقات، ويتفاقم فيه التشيىء، ويتراجع فيه الحس الإنساني لصالح ثقافة استهلاكية عبثية.

وقد أتاحت نظرية فان دايك، من خلال مثلث الخطاب والمعرفة والمجتمع، أداة فعالة لتحليل الديناميات النصية التي تمأسس التحيز الطبقى داخل الرواية. فالخطاب فعالة لتحليل الديناميات النصية التي تمايديولوجيا لتكريس تصور نرجسي عن الذات اليوتوبية، مقابل تقديم غط غطى سلبي للآخر المقموع. وتظهر البنية السردية، على المستوى البنيوى واللغوى، كيف يتم إنتاج هذه التمثيلات وتدويرها داخل الرواية، عبر المفردات، والضمائر، وتوزيع الأصوات.

كذلك فإن تطبيق المربع الأيديولوجي على الرواية كشف عن استراتيجيات تقديم الذات الإيجابي والتقديم السلبي للآخر، حيث يتم تأكيد تفوق اليوتوبيين وتحضرهم، مقابل حيوانية الأغيار وهمجيتهم. غير أن المربع الأيديولوجي المضاد، لا سيما من منظور جابر، يمنحنا قراءة معاكسة تعيد الاعتبار للأغيار كذوات لها معرفة، وقدرة، وكرامة. فشخصية جابر ليست فقط رمزا للمقاومة الفردية، بل هي أيضا تمثيل صوتي لهامش ينطق بالحقيقة وسط صخب الزيف.

هــذا التحليل يثبت كيف يمكن للنص الأدبى أن يتحول إلى ســاحة صراع خطابية تشــهد مواجهة بين رؤيتين للعالم: واحدة تنكر إنسانية الآخر وتسعى إلى تشييئه، عبر خطاب متعال اســتعلائى، وأخرى تقاوم من الهامش وتحاول استعادة ما بقى من كرامة الإنســان، وتفضح تناقضات اليوتوبيا المزعومة. ومن هنــا، فإن رواية يوتوبيا لا تقرأ بوصفها سردية خيال علمى فقط، بل كوثيقة نقدية تفضح آليات القمع والتهميش، وتتيح لنا، عبر أدوات تحليل الخطاب، أن نعيد التفكير في علاقتنا بالآخر، والسلطة، والمعرفة، والمجتمع.

#### المصادر والمراجع

أعرضى، رشيد. (٢٠٢٥). تحليل الخطاب الشعرى قراءة اتساقية لقصيدة أبى العباس الجراوى (٩٠٠هـ) في وصف معركة الأرك. الأردن: مركز الكتاب الأكاديي.

بن غالى، ناصر بن عبدالله. (٢٠٢٤). نحو لسانيات عربية اجتماعية من النظرية إلى التطبيق، الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية.

توفيق، احمد خالد. (٢٠١٤). يوتوبيا. ط١. القاهرة: دار الشروق.

الزناتي، سمر خلف الله. (٢٠٢٤). ترامب وبايدن؛ تحليل الخطاب الصحفي، مصر:دار العربي للنشر والتوزيع.

سامح، شريف. (٢٠١٧). الشعارات السياسية: دراسة نظرية وتطبيقية. مصر: العربى للنشر والتوزيع. الساوى، عبدالحفيظ. (٢٠١٣). الخطاب السياسي للرئيس محمد مرسى: دراسة تحليلية. إسطنبول: دار أصالة للنشر.

الشويرخ، صالح بن ناصر. (٢٠٢٣). منهجيات البحث في اللسانيات التطبيقية. الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية.

الشويرخ، صالح ناصر. (٢٠٢٥). قضايا معاصرة في اللسانيات التطبيقية. الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية.

العربي، ربيعة. (٢٠١٩). الخطاب: المحددات واليات الأشغال. الأردن: دار أمجد للنشر والتوزيع.

العلى، بلال موسى. (٢٠٢٢). لعبة الحقل الرقمى: صراعات السلطة والهيمنة والتمايز في حقل التواصل الاجتماعي: توسيع إطار النظرية البورديوية. الإمارات العربية المتحده:

فان دایک، تئون. (۲۰۲۳). الأیدیولوجیا والخطاب: مقدمة متعددة التخصصات. ترجمة: سمعید بکار؛ لحسن بوتکلای. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السیاسات.

محمد، سالى عاطف فتح الله. (٢٠٢٣). إعلام الحرب بين الحقيقة والتضليل: حرب اكتوبر. مصر: دار العربي للنشر والتوزيع.

#### الإنجليزية:

Jawad, F. A.-M. (2023). A Proposed Objective Version of the Ideological Square Theory in Critical Discourse Analysis. بمجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ١٠٧٤–١٠٥٩.